

تمهيد:

ورد في معجم المصطلحات الأدبية عن التراث: «ما يتوارثه شعب من الشعوب جيلا بعد جيل من آداب وعلوم وفنون وعادات وتقاليد وخبرات، فيصبح كل ذلك عبر الأزمان جزءا من الاحساس الوطني والاعتزاز القوي لدى أفراد ذلك الشعب»¹، أما التعريف اللغوي للتراث فيجعله في ما خلفه الرجل لورثته من مال وحسب مما يقتضي موته، وبناء عليه حدد بعض النقاد التراث تحديدا زمنيا «فجعله منحصرًا في كامل " التراكيمات الثقافية منذ العصر الجاهلي إلى بداية مرحلة الاستعمار في مطلع القرن الماضي من فكر وثقافة وقيم فنية أخلاقية ما تزال محفوظة لنا بصورة من الصور»².

يستلزم التحديد الزمني للتراث اعتباره منتها وجامدا، وهذا ما لا يتفق عليه الدارسون، حيث تذهب بعض الآراء إلى أن للتراث امتدادا في الراهن، وأن الراهن لم ينشأ من عدم، بل هو مرتبط بالتراث. «لهذا كله نرى أن ليس للتراث حدود زمانية ولا نوعية إذ يشمل مختلف التراكيمات الثقافية والحضارية والفنية واللغوية والذاكرة الجماعية، إلى آخر ما أنتجه الإبداع العربي من كتب وموسيقى ومعمار وغيرها، فهو يعيش في وجداننا وأذواقنا، ننفسه يوميا، ونعيش على إيقاعه، ونسعى إلى تجاوزه وهو فينا»³.

اختلف المفكرون والنقاد في موقفهم من التراث بين ممجد له ومنكر؛ «ممجد يرى الفضل كل الفضل في تقديسه واعتباره شيئا جامدا لا يتطور ولا يتغير وسلطة لا محيد عنها، ويرى أن العودة إليه عودة إلى الأصول إثباتا للهوية والأصالة، وأن التخلي عنه انسياق إلى الغزو الثقافي والتغريب ما إلى ذلك، وهذا موقف السلفيين والماضويين بجميع أصنافهم، أما المنكر، فإنه يهجنه ويرى فيه صورة للتخلف وقيدا يمنع من الانخراط في حداثة العصر، فيدعو إلى طمسه ومحوه واستبداله، وهذا موقف عبد الله العروي مثلا في كتابه "العرب والفكر التاريخي" (...) والحق أن كلا الموقفين لا يأخذ بعين الاعتبار الجدلية القائمة بين التراث والواقع، ولا يرى أصحابها فيه حركة صيرورة دائمة تمضي في رحلتها من الماضي إلى الحاضر، لذلك لا بد من معرفته وفهمه وتقويمه التقويم الصحيح، والنظر إليه نظرة نقدية لرصد جوانبه النيرة واستيعابه وصهره في وجداننا وأساليبنا، ومحاورته وإغنائه وتجاوزه انطلاقا من جدليته وامتداده فينا لبناء حركة المستقبل»⁴.

عرفت الثقافة العربية التراثية أشكالا متعددة للسرد والقص، كقصص الأنبياء، والقصص القرآني، والسير، وما جاء في كتب الأدب والأخبار وغيرها، وقد استعرض هذه الأشكال في علاقتها بالرواية العربية الحديثة فاروق خورشيد في كتابه "في الرواية العربية" الذي ضمنه أمثلة لبعض القصص التي ضمها كتاب التيجان لوهب بن منبه، وغيره من الكتب الأخرى، كما تعمق عبد الله إبراهيم في كتابه "السردية العربية" في رصد ملامح القص التراثي وبنياته السردية الموجودة في "ألف ليلية وليلة"، وفي الحكاية الخرافية، والسير الشعبية وفن إلقاء القصص لدى "الحكايات" مما يثبت إقبال الجماهير العربية على القصص، والجذور العميقة لفن القص والحكي في المنطقة العربية، وغنى التراث السردى العربي القديم.

¹ نواف نصار: معجم المصطلحات الأدبية، دار المعتز، عمان، 2009، ص71.

² محمود طرشونة، مدرسة توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، مجلة فصول، المجلد 17، العدد 1، صيف 1998، ص28.

³ المرجع نفسه.

⁴ المرجع نفسه، ص29

1. التراث السردى العربي القديم ونشأة الرواية العربية :

يذهب الباحث عبد الله إبراهيم إلى أن لهذه المرويات الموروثة دورا كبيرا في التمهيد لنشأة الرواية العربية الحديثة، فعلى الرغم من انكسار النسق التقليدي الذي مثلته هذه المرويات الموروثة، وبداية انهيار أبنيتها السردية وتحللها، إلا أن الأنواع الأدبية الناشئة امتصت كثيرا من سماتها الفنية والدلالية، قبل أن تتفصل عنها تدريجيا، «فالسماة المميزة للنوع الجديد لا تنبثق فجأة من الفراغ، إنما تستظل بسمات الأنواع السابقة، لكنها تقوم، في الوقت نفسه، بتتحية بعضها، والتمرد على الأخرى، وتوظيف ما تراه مناسباً كرسيد لها»⁵.

وقد نشأت الرواية العربية الحديثة على حدود ثقافتين؛ ثقافة تقليدية في طريقها للأفول، وثقافة جديدة في طريقها للتشكل والظهور، فهي نتاج تفاعل المؤثرات الثقافية من كليهما في السياق التاريخي للقرن التاسع عشر. بصيغة أخرى: لا يمكن تفسير نشأة الرواية العربية الحديثة بالمؤثر الغربي وحده، فهو عامل من بين عوامل أخرى، بعضها مرتبط بالثقافة العربية التراثية.

إن الروايات التي كتبت بدءاً من عام 1847 وحتى بداية القرن العشرين كانت موزعة بين أسلوب المقامات ولغتها الزخرفية واحتوائها على كم هائل من المعلومات غير المتجانسة، وبين الوقوع تحت تأثير الروايات الغربية الرديئة التي كانت يختارها صغار المترجمين لما فيها من غرائب ومغامرات. «وهكذا فإن روايات "مجمع البحرين" لليازجي، و"الساق على الساق" للشدياق، و"الهيام في جنان الشام" للبيستاني وغيرها مليئة بالسجع والوعظ والعلوم الطبية والجغرافيا، إضافة إلى الغرائب والمغامرات».

يرى محمود أمين العالم أن الرواية العربية «قد ارتبطت أساساً منذ بداية نشأتها بمحاولة إبراز وبلورة الهوية القومية في مواجهة الآخر الغربي المستعمر، ولهذا كانت البدايات الأولى لبنيتها التعبيرية امتداداً بنوياً لمختلف التعبيرات الأدبية التراثية السابقة وخاصة السير الشعبية والأحداث التاريخية البطولية والمقامات، دون أن يعني هذا أنها كانت تخلو من التأثير في تشكيلها البنيوي بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية والوطنية والثقافية السائدة التي نشأت فيها وعنها، ولقد أحصى الدكتور علي شلش في كتابه الأخير "نشأة النقد الروائي في الأدب العربي الحديث" ما يقرب من 250 رواية عربية مؤلفة بين عام 1870 و1914. ولو تأملنا هذه الروايات سواء في عناوينها أو في موضوعات المتيسر منها، لتبين لنا أن أغلب هذه الروايات كانت تستلهم التراث الأدبي العربي القديم في بعض أبنيتها التعبيرية كالمقامة "كما هو الشأن عند علي مبارك والمولحي وحافظ إبراهيم، بل نستطيع أن نعود إلى ما قبل هذا التاريخ في المقامة التي كتبها حسن العطار"، ولا شك أننا نتحدث عن هذه التعبيرات الأدبية بشكل مجازي عندما نطلق عليها اسم رواية، فلقد كانت في الحقيقة تعبر عن مرحلة انتقالية في الكتابة النظرية السردية تمهّد للبنية الروائية في الأدب العربي الحديث»⁶.

2. "حديث عيسى بن هشام" بين المقامة والرواية:

أخذت الكتابات القصصية الأولى شكل المقامة، وكان هذا الشكل تعبيراً عن البحث عن خصوصية قومية في مواجهة الحضارة الغربية، والعمل الذي يكون اقرب إلى الرواية هو "حديث عيسى بن هشام" للمولحي.

⁵ عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2013.

⁶ محمود أمين العالم: أربعون عاماً من النقد التطبيقي؛ البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة، دار المستقبل العربي، مصر، 1994، ص19.

أسمى المويحي كتابه "حديث عيسى بن هشام" مستمدا هذه الشخصية من التراث العربي، وقد كان والده من قبل أصدر كتابا بعنوان "حديث موسى بن عصام"، وقد يكون المويحي قد تأثر به، وقد أهداه المويحي الكتاب لأبيه كما أهداه لكل من الحكيم جمال الدين والشيخ محمد عبده والشيخ الشنقيطي، والشاعر محمود سامي البارودي، وجميعهم كانوا يهدفون إلى بعث مجد المسلمين، وإيقاظ عقولهم. صدر الكتاب عام 1907 وقبل ذلك كان قد أصدره في جريدة مصباح الشرق التي كان يديرها مع والده، وقد حقق الكتاب شهرة واسعة حتى يمرض الباشا.

قسم الباحث سيد بحراوي فصول الكتاب إلى ثلاث وحدات هي:

الوحدة الأولى: تبدأ من بعث الباشا التركي حتى مرضه، وتروي حكاية الباشا خلال صراعه مع الراوي ثم مع المكاري وصولا إلى البوليس والنيابة والمحاكم الأهلية والشرعية حتى يمرض الباشا. الوحدة الثانية: يتم فيها استعراض قطاعات مختلفة من المجتمع تشمل الأطباء وعلماء الدين والأعيان والتجار وعالم اللهو الذي يكاد يكون له استقلاله النسبي، حيث يركز الكاتب حديثه عن العمدة ابن الريف الذي ينتقل إلى القاهرة رغبة منه في حياة الترف ولكنه يتعرض لأنواع من الابتزاز وهو الشخصية الساذجة، ومن خلال مصاحبته ومتابعته ووصف المجالس المختلفة يتم نقد المجتمع.

الوحدة الثالثة: تتناول قطاعات مختلفة في باريس، وتصف التطور الحاصل في الغرب.

تقول الدكتورة انجيل بطرس سمعان عن الفترة التي يصورها عيسى ابن هشام بأنها "فترة ثرية بعوامل التغيير والتطور، فترة اختلط فيها القديم بالجديد، وبدا الجديد أقوى وأكثر انتشارا، وإن لم يكن دائما خيرا من القديم. إن الباشا التركي المبعوث من القبر يأتي محملا بقيم الماضي، عندما كان في عهد محمد علي، ويفاجأ بزيف كثير من الأمور، في المظاهر والعادات، وفي القيم الاجتماعية والخلقية، وحتى على مستوى اللغة ال ويكاد يصدم في البداية إذ يتعرض للمرض، ولكنه سرعان ما يشفى ويصبح بحاجة إلى مزيد من الاطلاع وتقبل الوضع الراهن، ليس كذلك فحسب، بل يرغب في القيام برحلة إلى باريس ويزورها بالفعل رفقة الراوي، ويكاد الكاتب أن يصل بنا إلى الحل الآتي، وهو ضرورة الاعتماد على الحضارة الغربية في شقها المادي والعودة إلى التراث العربي الإسلامي في شقه الروحي والأخلاقي.⁷

حظي "حديث عيسى بن هشام" باهتمام كبير من النقاد والدارسين، اهتم معظمهم بإشكالية النوع الأدبي للكتاب، «فقد ذهب "هاملتون جيب" إلى أن شهرته لا تعزى إلى حكايته أو مغزاه، إنما إلى "أسلوبه البارع واقتداره على الوصف"، ف"المويحي" جمع فيه بين أحسن ما في أسلوب المقامة من خواص وبين أسلوب حديث يتسم بالسلاسة والفكاهة»، وأضاف: "لقد واتر ببراعة بين النثر المسجوع في الأقسام السردية.. ومقاطع حوارية صيغت بأسلوب سهل حديث، لم يتنكر في بعض أجزائه للغة الدارجة". وفسر "العقاد" تقيد "المويحي" بالسجع إلى أنه وضع الكتاب "على نسق المقامات، واختار له اسم روايته كأسماء رواتها، فالتزم فيه ما كانوا يلتزمون في مقاماتهم من الأسجاع والأوضاع"، فيما ذهب "علي الراعي" إلى أن "الباحث المدقق يرى في الكتاب صراعا ملحوظا بين فن المقامة وفن الرواية؛ فالمقامة تغلب على الكتاب في أوائل الفصول، ثم لا يلبث ما في الفصل من قصة أن يتغلب على المقامة، فيصبح الدفع باتجاه الرواية أوضح". أما شوقي ضيف فرأى أنه "وسع جنبات المقامة القديمة، وخرج بها إلى حوار واسع، تأثر فيه بطريقة الغربيين في قصصهم... فالحوادث تتطور والشخصيات تصور بنزاعاتها النفسية في المواقف المختلفة»⁸.

⁷ انظر صالح مفقودة: أبحاث في الرواية العربية 1، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، ص36.

⁸ عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، ص272.

أما الناقد عبد الله إبراهيم فيصف الكتاب على أنه «كتاب عبور بين تصورين مختلفين عن العالم، ويُعدّ الوثيقة السردية الأكثر أهمية التي رسمت ذلك التحول، فالكتاب بشخصياته ونظامه القيمي والدلالي بدأ بحالة معينة، ثم انتهى بحالة مختلفة، حيث تغيرت القيم والشخصيات والمنظورات السردية، حتى اللغة والأسلوب (...) ويمكن اعتباره إشارة ختام لنسق سردي قديم وعلامة بدء لنسق سردي جديد»⁹.

في الأخير نود أن نشير إلى أنه «إذا كانت الرواية العربية قد أخذت تتخلص من ارتباطاتها الأولى ببعض الأبنية التعبيرية القديمة من مقامات وحكايات وسير شعبية، وأخذ يغلب عليها الشكل الروائي الغربي، فإنها عادت (...) عند بعض الروائيين المعاصرين إلى استلهاً الأشكال التراثية القديمة والتاريخ القديم والحديث استلهاً متخيلاً أو نقلاً تسجيلياً مباشراً منه، كما تداخلت في الرواية العربية الحديثة بعض الأجناس الأدبية والثقافية الأخرى من شعر ومسرح وفكر، فضلاً عن استفادتها من بعض الفنون وخاصة فن السينما»¹⁰.

⁹ المرجع نفسه، ص260.

¹⁰ محمود أمين العالم: أربعون عاماً من النقد التطبيقي؛ البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة، ص22.